الصوم ودوره فى الصيانة الربانية لاحتراق البشرية

أظهر العلم الحديث أن ما نراه من أشياء في الحياة الدنيا، هو مظاهر متباينة للطاقة، وأن الحركة في الكون لا تنشأ إلا عن عملية احتراق، والاحتراق ظاهرة لا تحتاج إلى دليل، فكل ما في صفحة الكون في حال احتراق، فألسنة اللهب تتطاير مئات الكيلومترات من الشموش، وضوءها يصل لنا فيبعث فينا الطاقة، والطاقة ملازمة لموج البحار وحركة الرياح، حتى الشجر الأخضر وعملية التمثيل الكلوروفيللي التي يقوم بها، ينتج عنها غاز الأكسجين الذي هو أساس عملية الاحتراق ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون) (يس ٨٠)، ولابد للإنسان من الطاقة وعملية الاحتراق حتى يسعى في الأرض، وقد عرف الإنسان منذ القدم الحاجة إلى الطعام، والذي أظهره الطب الحديث أن الطعام لا يمد الإنسان بالفيتامينات والمعادن والأملاح فقط، وإنما يمده أيضًا بالسعرات الحرارية، وعندما درس العلماء صنوف الطعام والشراب، علموا مقدار الطاقة التي يقدمها كل منها، وبالتالي تحولت عملية هضم الطعام إلى احتراق يحول الطعام إلى سعرات حرارية ويستخلص منه ما ينفع الجسم من الفيتامينات وغيرها.

ومن البديهي أن أهم المهام التي يتولاها مصمموا الأجهزة والآلات والماكينات التي تتعامل مع الطاقة بأي صورة من صورها، أن يجعل لها أنظمة تبريد وتشحيم، سواء أثناء حركة الآلة نفسها أو في فترات الصيانة الدورية، وكلنا يعلم أن السيارات والطائرات والقطارات والسفن وغيرها تدفعها المحركات، وأن الأجزاء المتحركة منها لابد لها من زيوت معينة، وبنقاوة ولزوجة محددة، حتى تحافظ على معدلات أدائها، وأي خلل في عملية التبريد هذه لابد أن تصيب الآلة بأعطال وخلل في أداء وظيفتها، وكل صانع يضع مواصفات أنظمة التبريد لما يقوم به من ابتكارات.

فيا ترى ما التبريد الذي يحتاجه الإنسان حتى تكون حركته في الحياة الدنيا على أمثل صورة؟ إننا دائما نتوجه بمثل هذا السؤال إلى علماء النفس أو الأطباء أو غيرهم، وهم من خلال علمهم وأبحاثهم يقدموا العديد من الإجابات، فهل فكرنا في أن نطرح هذا السؤال على خالق الإنسان؟

إذا أردت أن تعرف الإجابة فعليك أن تتوقع وجود نظامين للصيانة والتبريد أحدهما ملازم لحركة الإنسان اليومية في الحياة، والثاني صيانة دورية سنوية تتجدد فيه أجهزة الاحتراق، لتعود إلى حالة التشغيل الأمثل، و الضبط الشامل لكل الأجزاء.

أولاً: الصيانة المصاحبة للحركة اليومية:

دعنا نتأمل حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يُكتب عليكم شيء حتى تستيقظون".

إن تكرار كلمة احتراق عشر مرات في الحديث ليست مصادفة، وإنما هو أسلوب تأكيد تعرفه العرب، فالاحتراق الأول منذ استيقاظ المسلم من نومه حتى صلاة الفجر، يغسله الوضوء الأول لصلاة الفجر، والمراد هنا التبريد، بمعناه المعاصر، واحتراق المرء في حياته إما أن يثمر طاعة الله تعالى في قلبه، أو يثمر معصية ينكت في قلبه سواد على قدر ذلك الذنب، والوضوء لا يغسل الجوارح ويلطف من درجة حرارة الأعضاء فقط، وإنما يزيل سواد المعصية، ويستبدله بضياء المغفرة، فالأطباء وعلماء النفس وغيرهم سيغفلون دور الشيطان في عملية الاحتراق ودورة التبريد اللازمة لها، وعندما نرجع إلى الوحي يتبين لنا أمور جديدة، يقول رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه أَحْمَد في مسنده وأبو داود في سننه: " إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خُلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ".

ويحلل الأطباء ظاهرة الغضب أن سببًا ما أدى إلى ارتفاع ضغط الدم، ولا يدركون أن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، قد وسوس للغضبان في عقله ونفسه، ومنحه طاقة زائدة في دمه، فظهرت أعراض ارتفاع ضغط الدم، وعلاج هذا العرض عند الأطباء حبوب تخفض الدم، وهذا جيد، ولكن الداء الحقيقي علاجه في الوضوء الذي يمثل في حقيقه تبريد إضافي سريع، يسبب انخفاضًا في درجة حرارة أعضاء الوضوء، ومن ثم تضيق الشّعيرات الدموية المعرضة لماء الوضوء، وبالتالي تقل الدماء التي تصلها، وتُطفئ ثورة الشيطان في عروق ابن آدم، وتضيق عليه مجرى العروق، فيقضي على الداء وأعراضه معًا. فالوضوء إذن له دور هام في عملية الاحتراق، وقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " إذا توضأ العبد المسلم، فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب". إن الوضوء فقط هو الطهور الحقيقي للمثول بين يدي الله ومناجاته.

وفي الحديث الشريف : " الطهور شطر الإيمان" . فما بالك بالصلاة؟ وهي أشرف مناجاة بين العبد وربه، فرضها الله تعالى على نبيه من فوق سبع سماوات، ولهذا من أداها يتلقى خلالها نور الهداية والتوفيق من الله تعالى، فيضيء قلبه في الدنيا بتجليات رضوان الله عز وجل ويُحشر يوم القيامة ووجهه كالبدر يوم تمامه، أما من يحترق طوال يومه حائرًا بين المعاصي، ضائعًا في دروب النفس والشيطان والهوى، يتردى بين الكبر والخُيلاء، والظلم

والاستبداد والحسد والحقد والبغضاء، فإن قلبه في الدنيا مُغلف بسواد المعصية ويُحشر يوم القيامة مع من قال فيهم الحق تبارك وتعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة).] سورة الزمر آية ٦٠ [

وفي الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر:" يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دف نعليك بين يدي الجنة، قال : ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي".

ويروي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أيضًا أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا : بلى يا رَسُول اللَّهِ، قال : " إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط". والمراد هنا الجهاد في سبيل الله، فجهاد النفس والشيطان يكونا بدوام الطهارة وإسباغ الوضوء، وحب الصلاة والمداومة عليها من أعظم الإيمان، فالصلاة عماد الدين، ومن أقامها أقام الدين واستعمل الأسلوب الرباني في صيانة الكيان الإنساني، وضمن أن يُبعث يوم القيامة ونوره يسعى بين يديه.

ثانيا: الصوم أفضل صيانة سنوية للإنسان

إن هدف الصوم كما حدده القرآن الكريم هو الوصول إلى مقام التقوى، فقد ختم آية التكليف بالصيام بقوله تعالى : (لعلكم تتقون)، وفي السُنة المطهرة نجد للصوم دوره البارز في خفض تأثير الشيطان على ابن آدم، فشهر رمضان بمثابة معركة بين الإنسان وعدوه اللدود من الشياطين وأعوانهم، فالصيام من العبادات القليلة التي لا رياء فيها، إن إغلاق أبواب جهنم، وفتح أبواب الجنان، وتصفيد الشياطين، كل ذلك من عون الله تبارك وتعالى للعبد، وتيسيره له حتى يخلص في عبادته، ولابد للمرء من جهد يبذله، وعمل صالح يقدمه، والصوم يحاصر الشيطان ويضيق عليه مجاري العروق، فيحد من تأثيره على أعضاء جسد الإنسان، ووسوسته الخبيثة على نفسه، فشهر رمضان يمثل حصارًا مستمرًا على الشيطان، ولو أداه ابن آدم كما ينبغي، ولم يُحرم الطعام والشراب فقط، بل توقف عن الغيبة والنميمة، وأكل الربا، والخوض في الأعراض، وأكل الحرام، وشهادة الزور، وقول الباطل، والانسياق وراء المفاسد والشهوات، وتجنب المنكرات، وسارع إلى الخيرات، وأقام الليل بالصلوات والقراءات، وعاش في رياض القرآن الكريم، كتب من الصالحين القانتين، وشارف على منازل الشهداء والصديقين،

أفق للبرمجيات